ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

أيديولوجية السلطة بين المماليك والمغول خلال القرنين السادس والسابع الهجريين

"دراسة في فكر ابن تيمية وابن المطهر الحلي"

إيهاب نبيل رفاعي إبراهيم

باحث دكتوراه في التاريخ الإسلامي

قسم التاريخ – كلية الآداب

جامعة عين شمس – جمهورية مصر العربية

مُلَخّصْ

إن فكرة هذا البحث تتلخص في كيفية توظيف الأيديولوجية الدينية المذهبية في خدمة الأنظمة السياسية، بل واستغلالها لتكريس الاستبداد والقمع، والدخول في حروب من أجل السيطرة على أجزاء كبيرة مترامية من العالم الإسلامي، خصوصًا في منطقة المشرق الاسلامي، وقد تمثل ذلك في نموذجين لدولتين عسكريتين هما الدولة المملوكية والدولة الايلخانية المغولية، دعامتهما الأولى في استقرار نظامهما السياسي، هو الاقطاع العسكري مع اختلاف صوره وأشكاله عند كلاً منهما، حيث كان من الطبيعي أن يكون المستوى الفكري متماهيًا مع بنية النمط الاقتصادي والاجتماعي عند المماليك والمغول. فضلاً عن توظيف تلك الأيديولوجيا ضد المعارضين وترهيبهم باسم الدين؛ لذلك قد اخترنا نموذجين من العلماء كمنظرين للسلطتين المملوكية والمغولية، وهما ابن تيمية السني المذهب المعاصر لدولة المماليك في مصر والشام، وابن المطهر الحلي الفقيه الشيعي المعاصر لايلخانات المغول في بلاد فارس والعراق، وطرح بعضًا من آرائهم السياسية المستندة إلى رؤيتهم الفقهية والمذهبية. أما عن المنهج المتبع في قراءة الاحداث التاريخية إبان فترة محل الدراسة، فقد آثرت اتباع منهج المادية الجدلية التاريخية؛ لعمقها الشديد في تحليل النصوص التاريخية، وقدرتها على قراءة الواقع، انطلاقًا من قاعدة أن الواقع يخلق الفكر وليس العكس، وقد توصلنا الى بعض النتائج المهمة منها نجاح المغول في ايجاد حل لمشكلة مواجهة المماليك- غير الحل العسكري - من أجل السيطرة على العالم الإسلامي، وذلك باعتناق ايلخاناتهم الإسلام، وتقديم أنفسهم على أنهم مسلمون جدد وقادرين على صنع حضارة جديدة كبيرة في المشرق الإسلامي، وليس اعتناق الإسلام إيمانًا منهم بعقيدته لذاته.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٥ أغسطس ٢٠١٦

تاريخ قبول النشر: ٠٨ أكتوبر ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:

المماليك، المغول، ابن تيمية، ابن المطهر الحلي، المذاهب الإسلامية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

إيهاب نبيل رفاعي إبراهيم. "أيديولوجية السلطة بين المماليك والمغول خلال القرنين السادس والسابع الهجريين: دراسة في فكر ابن تيمية وابن المطهر الحلي".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الخامس والثلاثون؛ مارس ٢٠١٧. ص١١٠- ١٢٢.

مُقَدِّمَةُ

لقد كان الصراع الدولي في منطقة المشرق الإسلامي، خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، مليئًا بالأحداث السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية أيضًا، بين دولتين أقامتا كيانات كبرى مترامية الأطراف، وهما المماليك الذين حكموا مصر والشام والحجاز، والمغول الإيلخانيين الذين حكموا العراق وبلاد فارس. حاول كل منهما السيطرة على الآخر وصد هجوم الآخر، لاسيما وأن هناك تغييرًا مهمًا أحدث فاصلًا في تاريخ المغول عمومًا، ألا وهو اعتناق إيلخانات المغول في فارس والعراق الإسلام، بدءً من الإيلخان أحمد تكودار (٦٨١-٦٨٣هـ/١٢٨٢-١٢٨٤م) مرورًا بغازان خان، وأولجايتو خدابنده، وأبو سعيد بهادر خان، الذين أسلموا وتأثروا كثيرًا بفكر المسلمين الموجودين في بلاد فارس والعراق.

إلا إن إسلام المغول كان سلاحًا خطيرًا للمغول للتفكير في الانقضاض على أملاك المماليك في مصر والشام، أي أن الإسلام كان المخرج أو الحل الشرعي للمغول بأن يطالبوا بحقهم كمسلمين في حكم العالم الإسلامي مثل دولة المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، وعلى الجانب الآخر اتخذ المماليك الإسلام كمسوغ شرعي وطبيعي بما أنهم مسلمين وللحفاظ على أملاكهم، بل والتوسع أكثر وضم مناطق أكبر، واستغلوا الخلافة العباسية؛ لإعادة الشرعية الإسمية مرة أخرى سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م) عندما أعادها السلطان الظاهر بيبرس في القاهرة.

إذن كان الإسلام بمثابة أيديولوجية السلطتين المملوكية والمغولية للسيطرة على العالم الإسلامي، قد قامت كل سلطة باستغلال تلك الأيديولوجية بطريقتها، فاتخذتا على مدار تاريخهما من يُنظّر لهما ولسياستهما الداخلية، من هذا المنطلق كان اختيارنا لعالمين كبيرين ومنظّرين للمعسكرين المملوكي والمغولي، وهما "ابن تيمية" و"ابن المطهر الحلي"؛ نظرًا لما لهما من أدوار، أحدثت تغييرًا هامًا وكبيرًا في سياسات الدولتين، خصوصًا أن كليهما فقيهين يمثلان اتجاهين مذهبيين مختلفين تمامًا، وهما المذهب السني والذي يمثله ابن تيمية، والمذهب الشيعي ويمثله ابن المطهر الحلي.

وسوف نعرض بالحديث عن أيديولوجية دولة المماليك، وممثلها ابن تيمية، محاولين إثبات كيف أن ابن تيمية نجح في التنظير للأيديولوجية السنية المملوكية؟، وكيف أن أفكاره السياسية، وآراؤه الفقهية ساهمت كثيرًا في الإساءة إلى الإسلام؟ وما هو موقف ابن تيمية من العلوم العقلية مثل المنطق والفلسفة؟.

أولاً: خلفية سياسية عن عصر ابن تيمية وتأثره بأحداثه

لقد عاش ابن تيمية[*] أحداثًا كبيرة وخطيرة على العالم الإسلامي، في ظل دولة المماليك الحاكمة في مصر والشام، وأعدائها المغول الحاكمون في العراق وفارس، وقد درس جميع المذاهب، إلا إنه انحاز إلى فكر الحنابلة الذين اعتمدوا كليًا على النصوص في دراستهم للعقيدة، أي أنهم كانوا متقيدين بالكتاب والسنة فقط ولا يؤمنون بمدرسة الرأي والاجتهاد.[١] لقد كان للحنابلة بين المدارس الفقهية مدارس خاصة بهم، وفي هذه المدارس الحنبلية تخرج ابن تيمية[٢]، ورأى الصراع الفكري بين الحنابلة والأشاعرة، وإلقاء التهم المتبادلة ما بين التجسيم والتشبيه[٣]، فوجد سبيلاً لدراسة الطرق الجدلية؛ لمحاورة ومجابهة الفكر الأشعري، أو أي فكر مخالف للحنابلة بوجه عام.

لقد عاصر ابن تيمية هجمات المغول على دار الإسلام، ومن الواضح أن كره ابن تيمية للمغول، ودعوته لقتالهم على الرغم من إسلامهم، هو نتيجة ما رآه من أهوال وغارات من حران إلى دمشق حيث القتل والتخريب والتدمير.[٤] ومما لا شك فيه؛ أن معاصرة ابن تيمية، وعيشه في ظل حكم المماليك، قد أثر على جوانب حياته الفكرية؛ نظرًا لأن نظام الحكم عسكريًا عرفيًا لا يعتمدون فيه على قانون مسطور ونظام قائم، ولا توجد شورى منظمة يقوم عليها أساس الحكم، وقد كان السلاطين المماليك يجتهدون في أن يكون حكمهم تحت عباءة الدين الذي يستمدون منه قوتهم.[٥]

نحن نعتقد بأن نشأة عالم دين في مثل تلك الظروف سابقة الذكر، ستؤثر بلا شك على منهجه وتكوينه الفكري، حيث إن السلاطين المماليك كانوا دائمًا يحتاجون إلى فتاوى لتؤيد أفعالهم، بالإضافة إلى نمط الإنتاج السائد كان الإقطاع، الذي وصل إلى ذروته متمثلاً في الإقطاع العسكري، ومن ثَمَّ كثرة جباية الضرائب، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى سيادة أو غلبة النقل على العقل.

ويؤيد ذلك الاتجاه محمود إسماعيل[٦]، بقوله عن تبرير مشروعية حكم السلاطين القائم على الغلبة والتسلط، وقد نيط بعضهم بالمناصب الهامة كالوزراة والقضاء والإفتاء فضلاً عن كتابة الدواوين؛ لذلك اقطعوا الإقطاعات، وحازوا الإنعامات، وجمعوا بين المكانة الروحية والمال والجاه، ووقفوا إلى جانب السلطة ضد العامة يرهبونهم باسم الدين، كما أسهموا بدور ذي شأن في إذكاء نيران الصراعات الطائفية، وحاربوا العلماء والفلاسفة، وتصدوا للفكر الحر والاجتهاد مروجين للاتجاه النص الغيبي المبرر لشرعية النظم العسكرية المستبدة بالحق أو بالباطل.

ويُعَدّ ابن تيمية مائلاً نحو شرائح الأمراء من الطبقة الأرستقراطية، وذلك بناء على ما حدث في عهد الناصر محمد بن قلاوون[*]، سنة (٧١٥هـ/١٣١٧م) من تقسيم الأراضي الزراعية، وقد أعاد الناصر بن قلاوون إلى الأمراء المماليك بعض ما أخذ منهم فهدئوا واستقروا، ويرى أبو زهرة[٧] أن ابن تيمية كان يتجه في الإصلاح إلى الخاصة، فإن صلحوا استقام العامة وارتفع الظلم عنهم.

أما عن عصر ابن تيمية من الناحية العلمية، فقد امتاز القرنان السادس والسابع الهجريين بكثرة الجمع والتأليف، فقد كانت المعلومات كثيرة جدًا، وتحصيلها كان بقدر عظيم وعكوف الناس عليها كبيرًا، لكن التفكير المطلق في مصادرها ومواردها والمقايسة بين صحيح الآراء وسقيمها مقايسة خالية من التعصب الفكري والتحيز المذهبي، لم يكن بقدر يتناسب مع ذلك التراث المعرفي، فقد كانوا يحفظونها بدون النظر الفاحص والعين الناقدة.[٨] لقد اتسمت المؤلفات الدينية في عهد ابن تيمية بالتحيز الفكري، والتعصب المذهبي، فكل رأي في العقيدة له إمام من المتقدمين يتبع بعض المتأخرين، وينظر إلى آرائه كلها على أنها الحق الذي لا شك فيه[٩]، ويرى أبو زهرة[١٠] أن السبب في ذلك التعصب هو أن إنشاء المدارس الفقهية المختلفة، أدى إلى كثرة الإتباع، وبالتالي ازدياد حدة التعصب المذهبي والفكري.

إلا أن الباحث يختلف تمامًا مع رأي أبو زهرة؛ لأنه من أوليات الوصول إلى الفكر الحر والاستقلال الفكري هي فكرة التعددية؛ لأن إنشاء المدارس الفقهية المختلفة سينتج عنه كثرة الآراء ووجهات

النظر، وكثرة التأليف وزيادة الإنتاج الفكري ستساعد على حل مشكلات حياتية متعلقة بالمجتمع، خصوصًا في عصر مثل عصر ابن تيمية، حيث شهد حروبًا كثيرة، وهو عصر دار حرب بين المماليك والمغول وبين المماليك والصليبيين. قد لا نحتاج إلى دليل تاريخي ولكن بالاستدلال المنطقي، يمكن القول بأنه لو كانت هناك مدرسة واحدة تقتصر على تدريس مذهب بعينه كالمذهب الحنبلي مثلاً؛ لشهد المجتمع حالة تعصب شديدة تؤدي إلى حالة عنف وإرهاب فكري لمعارضيهم.

ثانيًا: ابن تيمية كأيديولوجية لسلطة المماليك

يرى ابن تيمية[١١] أن وجود الإمام أو الحاكم ضروري، ففي المسند أن النبي قال: "لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم"، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بالقوة والإمارة. وكذلك إقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة ولهذا روي "إن السلطان ظل الله على الأرض"[١٢]. ويواصل ابن تيمية[١٣] حديثه عن تأييد الحاكم بقوله: "ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان؛ ولهذا كان السلف كالفضل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما، يقولون لوكان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان، فالواجب اتخاذ الإمارة دينًا وقربه يتقرب بها إلى الله".

ويؤكد ابن تيمية[١٤] جرأته على مناصرة السلطان المملوكي بقوله: "إن إقامة الدين عنده – أي ابن تيمية – هي بالسلطان والجهاد فقط" حيث يواصل حديثه قائلًا: "ومن كان عاجزًا عن إقامة الدين بالسلطان والجهاد، فَفِعل ما يقدر عليه من النصيحة بقلبه، والدعاء للأمة ومحبة الخير، وفعل ما يقدر عليه من الخير لم يكلف ما يعجز عنه، فإن قوام الدين بالكتاب الهادي والجديد الناصر". يبرر ابن تيمية حجته بأنه يرى أن الحكم المملوكي تجب طاعته ما دام قد جمع شمل المسلمين، كالحكم بخلافة النبوة التي لم تستمر سوى ثلاثين سنة، ثم صار ملكًا، وأنهم ما داموا قائمين بالصلاة وشعائر الإسلام وحماية الدولة الإسلامية، تجب طاعتهم في غير المعاصي، أما المعاصي فتستنكر عليهم، ولكن لا يسوغ الخروج عليهم وقتالهم، ومن أجل ذلك كان يقدم الطاعة لسلاطين المماليك.[١٥]

هذا بعض ما أورده ابن تيمية عن رأيه في الحاكم أو السلطان الذي يحكم الأمة، ونحن نرى أن تلك النصوص ما هي إلا مناصرة وتعضيد للسلطة المملوكية، فإن ابن تيمية بهذه النصوص يجافي روح وجوهر الإسلام، الذي وُجِد لنصرة المظلوم، ويحرض على الثورة في وجه الظلم لا ليدعوا للحاكم الظالم بالنصيحة.[*]

نحن أمام فقيهًا مناصرًا للسلطة مستشهدًا بأحاديث ضعيفة، لا تتفق مع الضابط الأخلاقي وهو جواز أن الأمة تظل ستين عامًا تُحكم بظلم خير من عدم وجود الإمام، أي أن ابن تيمية يخيرنا بين الحاكم الجائر أو الفوضى[*]، وصدق المستشرق الفرنسي هنري لاووست[١٦] في قوله: "بأن ابن تيمية وأئمته المشار إليهم، يفضلون الاستبداد على غياب السلطة السياسية، وذلك حبًا في النظام الجماعي". ويبرز تشدد ابن تيمية في مناصرته للسلطان المملوكي، عندما أشار إلى غلبة السلطان بالقوة بمقولة: "ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بالقوة والإمارة" وأيضًا استشهاده بحديث ضعيف بشهادة السخاوي: "إن السلطان ظل الله على الأرض".[*] فهذا ما اعتبره حديث الطغاة والمستبدين عبر التاريخ الإسلامي، فكل طاغي مستبد يريد أن يحكم شعبه بالقوة، يردد تلك المقولة الكاذبة بأن السلطان يمثل الله على الأرض.[*]

ومما يدل على انتفاء فكرة الديمقراطية أو انتخاب الحاكم _ وهي من أسس وقواعد فكرة الحرية في الإسلام_ عند ابن تيمية والتي تتضح في حديثه عن اختيار الخليفة، بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم، ومبايعة كبار الصحابة كأبي بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، يفضل أن تكون البيعة محصورة في البيعة الخاصة، بين كبار الصحابة فقط أفضل من الانتخاب الذي تشترك فيه الأمة بأسرها، فضلًا عن تفضيله لتعيين الخليفة أو الحاكم بنص منزل، أو ولاية عهد من الحاكم القائم إلى من يخلفه من بعده، مستشهدًا بحادثة بيعة الخليفة أبي بكر الصديق، ومن بعده عمر بن الخطاب.[١٧] إلا اننا نرى أن تغير الأمر بعد ذلك، وتكوين مجلس أهل الحل والعقد بإيعاز من عمر بن الخطاب كان له دلالة سياسية المجال لا يتسع لتفصيلها، حتى أن بيعة سقيفة بني ساعدة التي بويع فيها أبا بكر بالخلافة، كانت تمثل صراعًا سياسيًا واجتماعيًا من وجهة نظرنا، التي لا تتسع صفحات البحث لبيانها.[*]

ويؤكد ابن تيمية أن الدين عنده بالسلطان والجهاد، فهذا تشدد في فهم النص الديني، الذي حث وحض على مكارم الأخلاق، والمعاملات والعبادات، وليس قائمًا على القوة والسيادة والجهاد فقط، لعل دعوة ابن تيمية إلى فكرة إقامة الدين بالجهاد، تبدو طبيعية في إشارة أنه عاصر حربًا لا تنتهي بين المماليك والمغول، فهذا له أثر واضح على آرائه المتشددة. انطلاقًا مما سبق؛ سارع ابن تيمية إلى دعوة الناس إلى الجهاد ضد المغول، خصوصًا بعد دخول جيش غازان خان[*] حلب، حينما أرسل بالبريد إلى القاهرة يحث الناس على الجهاد، واجتمع بأكابر الأمراء، ثم نودي في دمشق بأنه من قدر على الهرب فلينج بنفسه[١٨].

وفي ذات السياق؛ تشير دوروتيا كرافولسكي[١٩]، إلى أن ابن تيمية خاض حملة ايديولوجية قاسية ضد الحرب النفسية المغولية التي كانت تستخدم اعتناق الإسلام لبلوغ أهدافها، فقد دافع ابن تيمية عن المماليك، ودولتهم في وجه خصومهم المغول الإيلخانيين عن طريق الرسائل، والفتاوى الموجهة إلى مسلمي العصر، وحاول في كل ما كتبه في هذه المسألة أن يبرهن على أن المكان الوحيد الذي يمكن أنْ يلتقي فيه المسلمون مع الإيلخانيين، هو ساحة المعركة؛ ذلك لأن المغول كفار وعلى المسلمين الجهاد

بالأموال والأنفس، وأقل ما يجب على المسلمين أن يجاهدوا عدوهم في كل عام مرة[٢٠]، أما كفر المغول فقد دلل ابن تيمية[٢١] عليه عقديًا وفقهيًا وتاريخيًا. نلاحظ من النص السابق؛ أن ابن تيمية لم يتورع عن تكفير المغول، وقائدهم غازان خان علمًا بأنهم أعلنوا إسلامهم، حتى ولو بهدف سياسي؛ لأنه لا يحق لابن تيمية أو غيره تكفير مسلم مهما بلغ إلا بنص قطعي في القرآن الكريم، إلا إن ظروف المعركة تحتم عليه استخدام كل ما قدر عليه من أسلحته الفكرية؛ لمواجهة المغول من ناحية وإرضاء سلاطينه المماليك من ناحية أخرى.

ويدلل رشيد الدين[٢٢] على تلك المواقف قائلاً: "وقد لوحظ أن سلاطين مصر والشام كانوا ينفقون ربع أوقاف الحرمين، وسبيل الحجاج في أغراض تتعلق بتصريف مصالح الجيش والديوان، وكانوا يجيزون صرفها بفتاوى تأويلية ولم يكن ذلك بجائز في الحقيقة". مما سبق يتضح لنا أن ابن تيمية، أصبح واجهة النظام المملوكي الدينية في وجه المغول والمعارضين معًا، أو بالأحرى أصبح ابن تيمية الأيديولوجية الدينية السنية للمماليك، ويؤكد ذلك آرائه عن مسئولية الحاكم أو ولي الأمر تجاه رعيته، وموقفه من سلاطين المماليك حتى لو كانوا جائرين، وهذا ما يتسق مع حديثنا عن ظهوره كواجهة سنية للنظام المملوكي.

ثالثًا: آراء ومنهج ابن تيمية في مواجهة مخالفيه في الرأي

نتطلق الآن للتجول داخل عقل ابن تيمية؛ لنرى فكره ومنهجه وآراؤه عن ثوابت الدين الإسلامي، وأيضًا آراؤه فيمَنْ يخالف رأيه، أو رأي الكتاب والسنة من وجهة نظره – من الفلاسفة والمناطقة والشيعة والمتصوفة؛ لنرى كيف أصبح هذا الفقيه المتشدد فكريًا، يُطلق عليه لقب "شيخ الإسلام" لقرون عديدة تُقدس كتبه وآراؤه، والتي أصبحت حتى الآن القاعدة الأساسية للمتطرفين دينيًا وفكريًا، يشيعون القتل والعنف في كل مكان.

١/٣- فكرة عامة عن منهجه وآراؤه في تفسير النصوص الدينية وكيفية تطبيقها:

يرى أبو زهرة[٢٣] أن ابن تيمية فيلسوف ديني بقوله: "بل إنك في رسائله وكتاباته تتبين النقل والآراء عقلا فلسفيًا متأملاً مدركًا، بل إن شئت فقل إنه أصدق رجال العلم تصويرًا للعقلية الإسلامية المتأملة العميقة". ويبدو أن أبو زهرة يقصد فقيهًا آخر غير ابن تيمية، حيث يعود أبو زهرة[٢٤] في رأي آخر يناقض نفسه قائلاً: "إنه العالم السلفي الذي ينزل عند رأي الجماعة ويخضع لحكم الإجماع، فكان رجلاً سلفيًا يتبع ولا يبتدع". إذن أين العقلية الفلسفية في رجل يتبع الإجماع ولا يبدي برأيه في مسألة ؟!، ويخضع للإجماع الذي ربما يجمع على خطأ.

يواصل أبو زهرة[٢٥] تناقضه مع نفسه قائلاً عن ابن تيمية: "لا يثق بالعقل ثقة مطلقة في مقدمات الحكم على العقائد والأحكام، من حيث سلامتها وعدم سلامتها، خصوصًا في متشابه الأمور؛ لذلك يأخذ على الفلاسفة، ومن نهج نهجهم في طريقتهم في التفكير، ويعزو خلافه معهم في النتائج إلى اختلاف الطريقة واختلاف المنهج، ويرى ابن تيمية أن العقل غير مستقيم الإدراك في الوصول منفردًا إلى حقائق الدين، بل لابد من النقل، فهولا يهمل العقل، بل يطلبه ولكن يكون تابعًا لا متبوعًا، محكومًا بالقرآن مقدماته في الاستدلال، فتأويل القرآن يكون من القرآن، لا من أقوال المتفلسفين والمتكلمين وأمثالهم".

يتضح أيضًا أن ابن تيمية لا يقيم وزنًا للعقل، فهو يريد أن يجعله تابعًا وليس متبوعًا، أي أنه يلغي العقل، ويسلم بصحة النصوص على عواهنها بلا تفكير أو تدبر، مخالفًا بذلك قول الله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾[٢٦]، وآيات كثيرة تنتهي بـ "أفلا تعقلون" و"أفلا يتدبرون" و"أفلا تبصرون"، بالإضافة إلى أن هناك أحاديث كثيرة، منسوبة إلى الرسول الكريم (ﷺ)، وملفقة لخدمة أهداف سياسية مثل أحاديث عن الإمامة والخلافة بعد موت الرسول الكريم، فضلاً عن التغيرات الطارئة على كل عصر، وزمن من الأزمنة التاريخية، تتطلب فقهًا جديدًا، وتطويرًا للتأويل والتفسير بما يخدم مصالح البشر.[*]

أما عن رأي ابن تيمية في تفسير القرآن الكريم، فهو يري أن تفسير القرآن الكريم بالرأي والاجتهاد في معاني آياته مرفوض، فهو يتبع الظاهر، من التفسير والمسموع أو المنقول عن الرسول وأصحابه والتابعين[٢٧]، ويقول عنه أيضًا ابن دقيق العيد الفقيه المحدث "رأيت رجلاً جمع العلوم كلا بين عينيه يأخذ منها ما يريد ويدع ما يريد"[٢٨]، ويتضح هنا ملكة الحفظ والنقل، التي تفوق بكثير ملكة الفهم وإطلاق الحرية للعقل.

ينقل إلينا محمد بهجت البيطار[٢٩] عن ابن تيمية ما يدل على إنكاره لمنهج الاستدلال، واستنتاج النصوص القرآنية، وإهمال علم التأويل، قائلاً: "أرسل الله الرسول بلسان قومه، وهم قريش خاصةً ثم العرب عامةً، لم ينزل القرآن بلغة مَنْ قال الأجسام متماثلة، حتى يحمل القرآن على لغة هؤلاء، هذا لوكان ما قالوه صحيحًا في العقل، فكيف وهو باطل في العقل، القرآن نزل بلغة الذين خاطبهم الرسول (ﷺ) فليس لأحد أن يستعمل ألفاظه في معاني بنوع من التشبيه والاستعارة، ثم يحمل كلام من تقدمه على هذا الوضع الذي أحدثه هو".

يتضح من النص السابق؛ كيف أن ابن تيمية يجعل تفسير القرآن بنصوصه حكرًا عليه هو ومَنْ يؤيده فقط، وكأن القرآن يخاطب فقط مَنْ هم على منهج ابن تيمية، فضلاً عن خلطه الشديد بين التفسير والتأويل، فالتفسير هو ظاهري في لفظ الآيات، أما التأويل فهو المعني الباطني للآية، وهو مرتبط بأسباب النزول، والظروف المحيطة بنزول النص القرآني، سواء سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، بدليل اختلاف المعاني في السور المكية عن المدنية، أو قبل هجرة الرسول أم بعد هجرته إلى المدينة.

أما عن كلامه عن الذين يقولون بتماثل الأجسام، وهو يقصد بالطبع المعتزلة؛ لأنهم اطلعوا على التراث الهيللينى الفلسفي، ومن ثَمَّ قاموا بتأويل النصوص القرآنية تأويل يتفق مع العقل والأدلة المنطقية، فابن تيمية لا يريد للمعتزلة، وأمثالهم تفسير أو تأويل القرآن؛ لإتباعهم الفلسفة والطرق الاستنباطية والاستدلالية؛ لفهم الآيات الكريمة التي بها الكثير من التشبيه والاستعارة والمجاز، وكأن القرآن نزل لقوم معينين، وهم فقط المعنيون بتفسيره، أما غيرهم من المسلمين، ليس من حقهم محاولة فهم كلام الله على ما يتسق من المعاني.

فأما رأي ابن يتيمة عن السنة وطريقة فهمها، فيقول: "إن كل من أثبت ما أثبته الرسول (ﷺ)، ونفي ما نفاه كان أولي بالمعقول الصريح، كما كان أولي بالمنقول الصحيح، إن من خالف صحيح المنقول، فقد خالف أيضًا صريح المعقول، وكان أولي بمن قال الله عنه: "وقالوا لوكنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير[٣٠]". يواصل ابن تيمية سطحيته في فهم النص القرآني، بأن مَنْ يخالف صحيح المنقول سيدخل النار، وطبق عليه الآية الكريمة[*]، وتلك الآية قصد بها الله أصحاب السعير، وهم الذين كفروا وهي سياق حديث الله وخطابه للذين كفروا، لكن ابن تيمية اجتزأ كلام الله من سياقه؛ ليحكم على معارضيه بالفسق والضلال والكفر.

أما عن كيفية تطبيق ابن تيمية آراؤه ومنهجه في الواقع هو وتابعيه، فهي للأسف أبعد ما تكون عن حقيقة الإسلام، وروحه السمحة والموعظة الحسنة، فلقد اتبع – الملقب بشيخ الإسلام – أبشع الطرق في فرض رأيه على معارضيه، فيذكر ابن كثير[٣١] – وهومن تلاميذ ابن تيمية- قائلاً: "أن ابن تيمية أقام الفضيلة والأخلاق في دمشق خاصةً في سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) عند دخول المغول، حيث أصبح إنكار المنكر حقاً عليه، بالفعل لا بالقول والقلب، إذ صار مبسوط اليد والسلطان فيها، فقد رأي الحانات والخمور، فأخذ هو وأصحابه في تحطيم أواني الخمر، وشقوا قربها، وعزروا أصحاب الخانات المتخذة للفواحش".

ويضيف ابن العماد الحنبلي[٣٢] أنه في سنة (٧٠٤هـ/١٣٠٤م) أخذ ابن تيمية الحجارين، وذهب إلى موضع شجرة كان يزورها الناس، وينذرون لها النذور، فقطعها وبني مسجدًا مكانها، فكان يجري على لسانه ألفاظ عنيفة يوجهها لمَنْ يخالفونه في الرأي، وفيهم علماء أكبر منه سنًا، مما أدى بالعلماء إلى الشكوى منه إلى الأمراء في مصر، خصوصًا وأن السلطان الناصر قلاوون كان يقدره تمامًا.[٣٣] ويظهر حتى في دروسه التي يلقيها، أنه كان يقسمها إلى قسمين: أحدهما للخاصة يذاكرهم الحقائق التي انتهي إليها، ووجوب تقريرها، وقسم للعامة يعظ ويرشد، ولكنه مع ذلك أضاف إليه رسائل كان يكتبها، ويجيب بها على الأسئلة.[٣٤]

خلاصة القول؛ يتضح لنا أننا أمام فقيهًا متعصبًا متشددًا، لا يرى إلا رأيه فقط، ومذهبه فقط هو الصحيح، وهو قد ابتعد تمامًا عن كلام الله عز وجل حين قال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٣٥]، فضلاً عن استخدام العنف، وهوما جعل كتبه مقدسه عند المتطرفين، وأصحاب العقول المظلمة، الذين يستخدمون العنف مستدلين بكلام ابن تيمية، بالإضافة إلى تفريقه في دروس الفقه، فجعل العامة لهم درس خاص، في اعتقادنا لكي يسهل السيطرة على الجهلاء من البسطاء، واقناعهم بأفكاره.

٢/٣- آراء ابن تيمية عن الفلسفة والفلاسفة والشيعة والمتصوفة:

نعرض الآن رؤية ابن تيمية، فيما يتعلق بالفلاسفة والمتكلمين، وعلاقة ذلك بعلم الأصول[*]، فيقول: "وأما الأصول، فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء، كالمتفلسفة والباطنية والملاحدة، والقائلين بوحدة الوجود، والدهرية والقدرية والنصيرية والجهمية والحلولية وغيرهم من أهل البدع، وقد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال، وبان لي أن كثيرًا منهم، إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية، وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم؛ لهذا قل أن سمعت أو رأيت معرضًا عن الكتاب والسنة، مقبلاً على مقالاتهم، إلا وقد تزندق أوصار على غير يقين في دينه واعتقاده، فلما رأيت الأمر على ذلك، اتضح لي أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم، وقطع حجتهم وأضاليلهم، أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم، ويزيف دلائلهم؛ ذبًّا عن الملة الحقيقية، والسنة الصحيحة الجليلة، ولا والله ما رأيت فيهم أحدًا ممن صنف في هذا الشأن، وادعى علو المقام، إلا وقد ساعد بمضمون الكلام في هدم قواعد دين الإسلام"[٣٦]. يواصل ابن تيمية[٣٧] هجومه، بكثير من التعصب في وصف الفلاسفة والحكماء بالجهل، ودمغهم بالضلال قائلاً: "وسبب ذلك هو إتباعهم طرق الفلاسفة في الاصطلاحات التي سموها بزعمهم حكميات وعقليات، وإنما هي جهالات وضلالات".

اعتقد أنه لسنا بحاجة إلى الاستغراق والاسترسال في شرح وتوضيح النصين السابقين لا الشيء إلا لكونهم دليلاً على تعصب ابن تيمية، واتخاذه موقفًا عدائيًا وصل إلى حد التكفير، وإعلان أن كل مَنْ تمنطق تزندق، واحتكار تفسير الكتاب والسنة عليه هو وأصحابه فقط، أما غيره فهم على الضلال المبين. ويزيد ابن تيمية في وصفه لعلم المنطق، بأنه من علوم الصابئة، ودخيل على الفكر الإسلامي، وإن إدراك الحقائق الإسلامية لم يكن في حاجة إليه، وأن المنطلق لا يحل مشكلات مختلف عليها، ولوكان المنطق يزيل خلافًا، فلم كانت الفرق المختلفة متباينة، بل لماذا كانت تلك الآراء المتنازعة، والمذاهب الفلسفية المتضاربة، والمذاهب الاجتماعية التي يهدم بعضها بعضًا.[٣٨] ويؤمن كلامه ابن شاكر الكتبي[٣٩] بأنه سيفًا على المخالفين وشجًا في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين، وإمامًا قائمًا ببيان الحق ونصره الدين.[*]

٣/٣- هجوم ابن تيمية على الشيعة والمتصوفة:

لقد اتجه نظر ابن تيمية إلى هؤلاء؛ لأنهم في اعتقاده منافقون غير مسلمين وأنهم شوكة في جنب الدولة المملوكية يتربصون بها الدوائر[٤٠]، ويرى أبو زهرة[٤١] أن معارضة ابن تيمية للشيعة

والمتصوفة نضال وجهاد ضد أعداء الإسلام حيث يقول: "وقد تصدى للشيعة والصوفية يناضلهم، أما المتصوفة فقد نازلهم بمحاربة فكرة وحدة الوجود والاتحاد"(*).

عندما خرج ابن تيمية وأصحابه محرضين السلطان الناصر بن قلاوون ضد شيعة الجبل في الشام، فقاتلوا الشيعة وقطعوا أشجار الجبل، وهنا يفسر ابن تيمية ويبرر قطعه للأشجار بقوله: "وقطعوا أشجارهم لأن النبي (ﷺ) لما حصار بني النضير قطع أصحابه نخلهم وحرقوه"(٤٢).

يتضح حقيقةً أننا أمام فقيه جانبه الصواب في فهم حادثة حصار اليهود وقطع أشجارهم ونخيلهم(*)؛ لأنه شبه الشيعة باليهود، ألهذا الحد وصل تعصب ابن تيمية ضد معارضيه ومخالفيه في المذهب أو الرأي إلى حد تشبيههم باليهود؟!، بل واستخدام العنف والقتل وقطع الأشجار في مشهد يسيء إلى الإسلام قبل أن يسيء إلى نفسه.

في ضوء ما سبق نقول؛ أن ابن تيمية ظل منحصرًا في حدود عقائد أسرته الحنبلية، وابتعد في جداله وبحوثه الكلامية عن سبيل الإنصاف، وجرد سلاح التهم على معارضيه، فكل ما تعلمه وقرأه، استخدمه في الدفاع عن مبادئ الحنابلة والمحدثين، ويرى أنهم أهل النظر فقط أو كما يقول بوصفهم النظار، ويوجه نقده الشديد والعنيف، بل والتكفير والدعوة إلى القتل إلى كل من درس الفلسفة، وكل من عارضه وخالفه بحجة أنه يتعارض مع الإسلام.(٤٣)

رابعًا: الإسلام وأيديولوجية السلطة عند المغول

لا يعنينا بحث الجوانب العقيدية في الإسلام، بقدر النظر إليه كأيديولوجية متكاملة تتضمن ثورة تقدمية، وتصور شامل لفكر إنساني راقي، ولكون الإسلام آخر الديانات السماوية؛ فإن شريعته جاءت لا لتعالج المشكلات الاقتصادية الاجتماعية للمجتمعات العربية فحسب، بل لتنظيم كافة العلاقات الإنسانية على صعيد العالم بأسره.

لكن من الممكن استغلال الإسلام كأيديولوجية سياسية، تخدم مصالح شريحة أو طبقة حاكمة تزيد الهيمنة والسيطرة على مقدرات الشعوب من ناحية، والتوسع في أراضيها وتكوين إمبراطورية واسعة مترامية الأطراف من ناحية أخرى؛ لذلك كان ظهور المغول على مسرح الأحداث – وهم أصحاب المذابح الوحشية الهمجية – دورًا في ازدياد حدة الصراع والحروب في العالم الإسلامي.

تعود بداية اعتناق المغول للإسلام إلى الإيلخان تكودار(*)، وقد أعلن إسلامه سنة (٦٨٣هـ/١٢٨٤م) وغير قوانين الياسا الجنكيزية، وجعل أحكام الشريعة الإسلامية هي الأساس، وأراد "أحمد تكودار" أن يعرض الإسلام على سلاطين الأسرة المغولية، لكنهم رفضوا ونقموا عليه مما أدي إلى مقتله على يد ابن أخيه أرغون بن آباقاخان(٤٤)، وأشار القلقشندي(٤٥) إلى نسخة كتاب قد أرسلها الإيلخان أحمد تكودار إلى السلطان المنصور قلاوون(*) المملوكي في مصر؛ ليعلمه بإسلامه ومن ثَمَّ الصلح بين المغول والمماليك، وقد رد السلطان المنصور بجواب مهنأه على إسلامه وتحسن العلاقات.

إذن هنا يظهر التساؤل الأهم وهوما هي الدوافع وراء إسلام المغول؟، ربما الإجابات التي أمدتنا بها المصادر الأصلية، تبدو كأنها منطقية لا لشيء إلا لكونها معبرة عن إيمان المغول بالإسلام إحسانًا واعتقادًا، لكن وجدت تفنيدات أخرى عند باحثين محدثين، وبعض من المؤرخين القدامى عن دوافع أخرى وراء اعتناق المغول للإسلام، وهذا ما سوف نورده الآن.

لقد كانت الظروف التاريخية مواتية للقطع مع التقليد المغولي، ففي الصين تُوفي قوبيلاي خان(*)، فنشبت إثر وفاته صراعات ضخمة على العرش الخالي، أسقطت عهود الإيلخانيين وشروط تحالفاتهم مع الصين المغولية، وهكذا شعر الإيلخانيون مرة أخرى – شأنهم عند تأسيس دولتهم – أنهم وحيدون، وأن عليهم التصرف بمفردهم، ومن هنا فقد كان بوسعهم طرد البوذيين من بلاد فارس، دون دعوتهم إلى الإسلام من غير أن يخشوا تدخلاً من جانب الصين، فقدم الإسلام إذن للمغول المخرج الأمثل من هذا المأزق، الذي كان الجميع يشعرون بثقل وطأته، لكن تضارب مصالح تلك المجموعات المنقسمة على نفسها، كان يجعلها عاجزة عن تجاوزه، فوجدوا في تقليد الخلافة الإسلامية حيث ولاية العهد هي طوق النجاة.(٤٦)

نستطيع القول؛ بأن دوروتيا كرافولسكي(٤٧) أشارت إلى الدوافع السياسية لاعتناق الإسلام المغول، ولكنها أشارت إلى أن البداية كانت من عند غازان خان، بالرغم من إسلام سابقه أحمد تكودار كما أشرنا، لكن تكودار لم يعمر في حكم ايلخانية ايران والعراق إلا عامين فقط، لكن غازان الذي أسلم جلس على عرش الإيلخانية، وانتهج سياسة جديدة، من الممكن أن تكون عهدًا جديدًا ومختلفًا للمغول سياسيًا ودينيًا واقتصاديًا. لقد أمكن عن طريق اعتناق الإسلام سد الفجوة بين الحاكمين والمحكومين، وظهر تعاون ايجابي من جانب الرعية، وبمقتضى السياسة الجديدة رمي إيلخانيو إيران إلى السيطرة على دار الإسلام، عن طريق مهاجمة النظام المملوكي بالشام ومصر وإسقاطه، وعوضًا عن المقاومة السلبية التي ظل الإيرانيون المسلمون يواجهون بها حكامهم الوثنيين في نظرهم، فكر المغول في حل يكمن في التعاون الإيجابي من جانب الرعية(٤٨). وقد فتح اعتناق الإسلام للإيلخانيين آفاقًا جديدة لسياسة فتوح وتوسع، وبهذه السياسة الجديدة رمى المغول في إيران(*) إلى السيطرة على دار الإسلام، عن طريق مهاجمة النظام المملوكي بالشام ومصر وإسقاطه، وكان بوسع خلفاء جنكيزخان أن يعرضوا أنفسهم في صورتهم الجديدة باعتبارهم البديل الأفضل بالمقارنة مع حكام مصر والشام وهم المماليك(٤٩).

كان المماليك قد عانوا من مسألة الشرعية في سنوات حكمهم الأولى، حتى كان انتصارهم الكبير على المغول في عين جالوت سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، ثم اقدامهم على إعادة الخلافة العباسية التي أسقطها المغول في بغداد سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، بقتل المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين[٥٠]، وجعلوا مقرها القاهرة سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)[٥١]. جاء انجازهم الثالث الذي اكتملت به شرعيتهم بطردهم الصليبيين نهائيًا من سواحل بلاد الشام، بذلك كله صار المماليك سلاطين الإسلام الكبار في دار الإسلام كلها، ولم يكن من مصلحة المماليك طبعًا أن يشاركهم حكام أقوياء كالإيلخانيين في اعتراف الخليفة بهم، وبالتالي في السيطرة كقوى كبرى متنازعة على دار الإسلام[٥٢].

يضيف محمد خاتمي[٥٣] المفكر الإيراني الكبير ورئيس جمهورية إيران الأسبق بأن تقبل المغول الإسلام، بل وتمذهب أحدهم بمذهب الشيعة – فيما سيأتي لاحقًا – وإن كانت هناك اختلافات تتضح من سلوكهم الشخصي وأسلوبهم الخاص، ولكن لم تكن دعائم حكوماتهم جميعًا إلا القهر والاستبداد. إذن في ظل تلك الدوافع السياسية المباشرة وراء إسلام المغول – خصوصًا غازان خان – هنا حاولوا اتخاذ أيديولوجية لمواجهة المعسكر المملوكي السني، وفي سبيل ذلك قام غازان خان بعمل حدث مهم يذكره القلقشندي[٥٤]: "إنه بتحول غازان إلى الإسلام انقطعت الروابط المباشرة التي كانت تربطه ببلاط الخان الأعظم في الصين، وأعلن استقلاله ولقب نفسه بلقب "خاقان" رغم أن هذا اللقب مقصور على إمبراطور المغول الأعظم في قراقورم، وكذلك كتب اسمه على السكة على النحو "السلطان الأعظم غازان" وأضاف إلى اسمه بتأييد الله المتعال".

يؤيد ذلك القول فؤاد الصياد[٥٥] الذي ذهب إلى أن أهمية إسلام الإيلخان غازان بأنه أصبح سياجًا منيعًا للمسلمين، برغم أنه اعتنقه سياسيًا، لقد حاول غازان خان في البداية حل هذه الإشكالية بالقيام بحملات عسكرية ضد المماليك بمصر والشام؛ لإسقاط الدولة المملوكية، وتوحيد الأمة والسلطة تحت سيطرته حسب الأيديولوجية السنية[٥٦].

أما عن استغلال غازان للإسلام جيدًا، فيقدم لنا بيبرس الدواداري[٥٧] نصًا هامًا على لسان غازان يقول: "وسمعنا أن أهل مصر والشام الذين أخذ منهم مسلمون مالهم لا عهد ولا ميثاق ولا أمانة ولا ديانة لهم، ويأخذون من أموال المسلمين ويقصدون دماءهم، توجهنا قادمين ديارهم لدفع المحركات الرديئة البادية منهم، وأننا أولاد سلاطين ربع أقاليم الأرض، وأنا مسلمون ومعاونون دين الإسلام، يجب على كل أحد مطاوعتنا اقتداءً بكلام الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

يوضح لنا النص السابق كيف أن مسألة الإسلام ليست هي المقصودة في حد ذاتها، بل الأطماع السياسية والاقتصادية الكبرى من السيطرة على التجارة الدولية وممراتها خصوصًا طرق البحار والملاحة في الخليج العربي، وطرق التجارة البرية، خصوصًا طريق الحرير التاريخي، وطبيعي أن يتخذ غازان لهجة عاطفية في خطابه عن الإسلام وحماية المسلمين، ويورد لنا كارل بروكلمان[٥٨]، دليلاً آخر على استغلال الإسلام سياسيًا، لكن هذه المرة من خليفة غازان على عرش الإيلخانية أو لجايتو خدابنده"[*]: "أما جهود أولجايتو في سبيل السيطرة على آسيا الصغرى، واتخاذها سلاحًا في وجه القوة المملوكية فذهبت أدراج الرياح شأن جهوده في سبيل الحصول على مساعدة القوى النصرانية في أوروبا تحقيقًا لذات الغرض".

فإذن أين الإسلام في قوة إيمان الإيلخان أولجايتو، واعتناقه عن اعتقاد كامل، فها هو يحاول الحصول على مساعدة من القوى المسيحية في أوروبا؛ لمواجهة المماليك في مصر والشام، إلا إن عدم استطاعة أولجايتو سياسيًا وعسكريًا في القضاء على المماليك، أو حتى ضم جزء من أملاكهم، جعل خليفته في الحكم الإيلخاني" أبوسعيد بها درخان[*]" يجنح نحو السلم ومبادئه المماليك لإدراكه صعوبة إسقاط المماليك آنذاك، وقد أورد القلقشندي[٥٩] نصًا تاريخيًا هامًا عن الرسول الواصل من أبي سعيد بهادر خان إلى الديار المصرية للسلطان الناصر محمد بن قلاوون وسمي هنا المرسوم "اليرليغ"[*].

خامسًا: إشكالية الشرعية عند المغول والتمذهب بالمذهب الشيعي

إن الإشكاليات الناجمة عن التناقض بين الأيديولوجيا السنية، والأيديولوجيا المغولية التقليدية لم تبرز بوضوح، إلا بعد أن فشل المغول في إسقاط الحكم المملوكي بمصر والشام، أي أنهم فشلوا في السيطرة على دار الإسلام، لقد كان بوسع الإيلخانيين في حقبة تسننهم اللجوء إلى الخليفة العباسي للحصول على مشروعية منه تجعلهم سلاطين الإسلام، ولو حدث ذلك لانتفى التناقض بين إيديولوجيتهم السنية المستجدة، والأخرى المغولية التقليدية، لكن ذلك لم يحدث؛ لأن المماليك هم الذين أعادوا تأسيس الخلافة العباسية بالقاهرة – كما ذكرنا – وبذلك سيطرة عليها وصاروا هم سلاطين الإسلام باسمها وتفويضها[٦٠]، فلو اعترف المغول في إيران والعراق بالقاهرة كمركز لدار الإسلام؛ لصاروا تابعين – شكليًا على الأقل – للمماليك المسيطرين، الذين يستطيعون أن يحددوا للخليفة- وهو في أيديهم – بمن يعترف، وحدود الاعتراف، وطبيعة الألقاب الممنوحة، ولم يكن من مصلحة المماليك طبعًا أن يشاركهم حكام أقوياء الإيلخانيين في اعتراف الخليفة بهم، وبالتالي في السيطرة كقوى كبرى متنازعة على دار الإسلام[٦١].

لم يستطع الإيلخانيون القضاء على المماليك؛ لذلك فإن الأيديولوجية السنية التي يمسك المماليك بزمامها لم تعد في صالحهم، فاقتضى الأمر تغييرًا جذريًا سريعًا، فكان التشيع على المذهب الإمامي[٦٢]. لا شك أن تحررهم النسبي من جنكيزخان، وإحساسهم بأن أسرة جنكيزخان هي صاحبة الحق في السيطرة

على العالم، سهل عليهم فهم الأيديولوجية الشيعية التي تحصر الحق في السلطة في أئمة آل البيت، إذن فإن انتقال الإيلخانيين من التسنن إلى التشيع، بالنظر للعوامل السابقة كلها باعتبار التشيع حلًا لمشكلة الأيديولوجيا لديهم المتعلقة بهويتهم ودورهم الجديد في دار الإسلام، فقد صار بوسع الإيلخانيين عندما تشيعوا، الادعاء بأنهم ينفذون إرادة الله وخطته اللتين تعطلتا عبر التاريخ؛ بسبب السيطرة السياسية لأهل السنة، وهكذا فإن كل السلطات الإسلامية حتى أيامهم هي غير شرعية؛ لأنها أكلت حق الأئمة، وبمقتضى هذه الرؤية يكون كل الخلفاء السابقين، بل والمماليك أيضًا متغلبين مغتصبين للسلطة[٦٣].

ويؤيد هذا الرأي فاطمة نبهان[٦٤] التي ذهبت إلى القول بأن حداثة الإيلخانيين بالإسلام، جعل من السهولة على علماء الذين بمذاهبهم المختلفة التأثير على السلطة؛ لإقناعه بالمذهب الذي يريدون له أن يعتنقه، وقد حدث ذلك مع السلطان أولجايتو خدابنده. وإذا نظرنا إلى الإيلخانيين، وجدنا أن الإيلخان أولجايتو يميل إلى المذهب الشيعي، بعد أن علم أن الرؤية الإمامية المتعلقة بالسلطان الشرعي، تقول بأن يعتبر السلطان شرعيًا إذا آمن بسلسلة الأئمة الإثنى عشر ويتبع المذهب الفقهي الإمامي، ويكون على استعداد لترك سلطته للإمام الغائب عندما يظهر من غيبته.[٦٥]

إمعانًا من أولجايتو لتأكيد تشيعه، فقد أصدر الأوامر والفرمانات إلى الأقاليم المختلفة بذكر أسماء الأئمة الإثنى عشر في الخطبة، ونقش أسمائهم على السكة[٦٦]، كما أمر بإقامة مدارس؛ لتعليم أصول وعقائد المذهب الشيعي، ومنها مدرسة في عاصمته مدينة السلطانية، كان بها ستون معلمًا ومائتا تلميذ، وأقام مدرسة أخرى عرفت باسم "مدرسة سياره" كانت ملحقة بمعسكره، وفيها الكثير ممن يتعلمون العقائد الشيعية[٦٧].

نتفق تمامًا مع ما سبق، ونضيف نقطة هامة ألا وهي أن محاولة الوزير الكبير رشيد الدين الهمذاني[*]، الاتفاق مع السلطان الإيلخاني أولجايتو قبل تحوله إلى المذهب الشيعي، بأن يشرع أبواب الإسلام السني للتغيير والتجديد والانفتاح، أما ابن تيمية فلم يكن لديه أي مشكلة في المعسكر السني المملوكي، فانصرف ابن تيمية إلى دعاية الحرب والتدمير والتكفير ضد المعسكر الإيلخاني، معتبرًا رشيد الدين جزءًا منه[٦٨]، ففي فتواه ضد المغول يقول ابن تيمية:[٦٩] "حتى أن وزيرهم هذا الخبيث الملحد المنافق، صنف مصنفًا مضمونه أن النبي رضى بدين اليهود والنصارى، وأن لا ينكر عليهم ولا يذّمون ولا ينهون عن دينهم".

سادسًا: ابن المطهر الحلي ممثلاً لأيديولوجية النظام المغولي

لم تبق الساحة خالية للفقيه ابن تيمية، الذي وقف مدافعًا عن المماليك والمعسكر السني، إذ ظهر في المعسكر المغولي العلامة الحلي الذي ساهم في تشيع أولجايتو، كاتبًا رسالة دعائية تضع التشيع الإمامي في التاريخ والحاضر في موضع المذهب المتفرد الواجب الإتباع[٧٠]. كانت بداية ظهور ابن المطهر الحلي، عندما طلب الإيلخان أولجايتو عالمًا من العراق من علماء الإمامية؛ ليسأله عن مشكلة وقع فيها، فوقع اختياره على العلامة الحلي، وهومن علماء الإمامية وقد لقُب بالعلامة؛ لأنه برع في المعقول والمنقول وتقدم على علماء عصره[٧١].

وكانت مؤهلات ابن المطهر الحلي عظيمة للغاية بتعدد مهارات وثقافات مختلفة، سواء في علم المنطق أو علم الحديث أو التفسير وتتلمذ عليه الكثير، كان لامعًا في المناظرة والجدل، حتى أنه ناقش آراء ابن سينا في كتابه شرح الإشارات، خاصة في علم الكلام من الطبيعيات والإلهيات والحكم العقلية والمنطق[٧٢]، ويشير لاووست[٧٣] إلى أن فلسفة الحلي تأثرت بالفارابي واخوان الصفا، وأخذ عن جمهورية أفلاطون، وتلك الفلسفة قائمة على الاستدلال العقلي لضرورة الاختلاف السياسي. أما عن آراء العلماء في ابن المطهر الحلي، فلنستشهد برأي العلامة الخواجة نصير الدين الطوسي[*] الذي يُعتبر نشاز عصره – كعالم فذ أو كما يلقب بأستاذ البشر – عندما سئل بعد زيارته لمدينة الحلّة بالعراق عما شاهده فيها قال: "رأيت خريتًا[*] ماهرًا وعالمًا إذا جاهد فاق".

من منطلق الحياد والموضوعية، لن نكتفِ بإشارة أحد علماء الشيعة – وهو نصير الدين الطوسي – لكونه على نفس مذهبه، لكننا سنعرض رأي أحد علماء السنة فيه، وهو ابن حجر العسقلاني[٧٤] الذي وصف ابن المطهر الحلي بالماهر في العلوم العقلية وتصنيف الأصول والحكمة، فضلاً عن أنه رأى أن ابن تيمية تحامل على الحلي في مواضع عديدة في كتابه- أي ابن الحلي- منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، ولما وصل إلى ابن المطهر الحلي كتاب ابن تيمية في الرد عليه كتب أبياتًا:

لوكنت تعلم كل ما علم الورى
طرًا لصرت صديق كل العالمِ
لكن جهلت فقلت أن جميع
من يهوى خلاف هواكَ ليس بعالمِ

وأيضًا من مؤشرات اتساع أفق ابن المطهر الحلي، تتلمذه على يد أحد علماء المذهب السني أمثال "محمد بن محمد بن أحمد الكيش"، ويصفه الحلي بأنه من أفضل علماء الشافعية، و"تقي الدين عبد الله بن جعفر الصالح" الحنفي المذهب.[٧٥]

يتبين لنا من النصوص السابقة كيف كان ابن المطهر الحلي نواة للعقل والعلم في عصره، وعلى الرغم من أنه شيعي المذهب، فلم يمنعه ذلك من الاطلاع، ودراسة المذاهب السنية، مما يدل على سعة العقل والعلم – على نقيض ابن تيمية تمامًا – وأيضًا دوره الحقيقي في تشيع الإيلخان أولجايتو، وتمذهبه بالمذهب الشيعي الإمامي الإثنى عشري[*]، إلا إن تمثيل الحلّي للأيديولوجية المغولية ظهر جليًا في تأليفه كتابه المشهور "منهاج الكرامة في معرفة الإمامة" الذي مثل الايديولوجية الشيعية التي اقتنع بها

الإيلخان أولجايتو، والتي مثلت حلاً سياسيًا شرعيًا لأولجايتو في مسألة حكم العالم الإسلامي.

إذن نحن لا حاجة لنا في الإسهاب عن فكر الحلي، لا لشيء إلا لكونه عالمًا في الفلسفة والمنطق والحكمة، ومختلف العلوم العقلية، تلك العلوم التي مثل جوهر فكرة وتفكيره، ذلك بأن نصوص كتبه لم يرد فيها مطلقًا أحكام تبيح القتل أو التكفير أو التحريض على العنف، لكنه على الصعيد السياسي، شارك في إظهار المغول كممثلين شرعيين عن الإسلام في لباس التشيع.

أما عن قبول الإيلخانات المغول للتشيع، وأحوال الشيعة في عهدهم، فنورد بعض من النصوص حولها، بدءً من الإيلخان غازان خان الذي أظهر مليًا واضحًا للتشيع، بدليل زيارته إلى الحرم الشيعي في كربلاء بهداياه وتحفه، كما أنه قدم لقبر الإمام الثامن "على الرضا" في مشهد النذور وأوقف عليه بعض الأوقاف[٧٦]. إلا إننا نرى أن النص لا يظهر تشيع غازان، بل يظهر اهتمامه بالشيعة كأحد أفراد فئات المجتمع الإيراني آنذاك؛ لأنه ببساطه لوكان ميالاً للتشيع، لأعلن تشيعه مثلما أعلن ابنه فيما بعد أولجايتو، لكن هو أراد التوفيق بين السنة والشيعة من أجل المصلحة السياسية.

لقد كان حريصًا على أن يثبت نواياه الطيبة تجاه الشيعة؛ لهذا صار يكرم السادات من أئمة الشيعة ويجلبهم، فأمر بالعطايا والهبات الكثيرة، فأنشأ للسادات دور السيادة في تبريز وغيرها من أمهات المدن، على أن يعطوا مرتبات تصرف لهم بانتظام حسب ما نصت عليه حجج الأوقاف المخصصة لهذا الغرض، كذلك أعفى رجال الشيعة من دفع الضرائب، وقام بتزيين أماكنهم المقدسة التي كان يزورها من آن لآخر، وفي سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) عندما توجه إلى مدينة الحلة بالعراق، وشاهد المشاهد، أمر للعلويين المقيمين بها مالًا كثيرًا، ثم أشار بحفر نهر بأعلى الحلة، فتم ذلك وسمي النهر الغازاني، وقد أوصله إلى مشهد الحسين حتى أخذ يروي أراضي كربلاء اليابسة، فأصبحت الأراضي الممتدة على جانبيه مليئة بالحدائق والبساتين، وصارت السفن القادمة من بغداد وغيرها من دجلة والفرات، تستطيع الوصول إلى المدينة، وزاد إنتاج غلات المنطقة زيادة ملحوظة، وقد عمرت الأراضي الواقعة على هذا النهر وارتفعت أسعارها وأسعار البيوت التي أُنشئت عليها أضعافًا مضاعفة.[٧٧]

نستنبط من النص السابق أن ما فعله غازان خان من اصلاحات زراعية واقتصادية، بالتأكيد ليس من أجل الشيعة أو إكرامًا لهم، بل نحن أمام مشروعات كبيرة، تتعلق بزيادة المساحات المزروعة مما يترتب عليه زيادة الخراج والضرائب، الأمر الذي سيعود بالنفع على خزائن الدولة الإيلخانية، خاصةً شرائح الطبقة الأرستقراطية الحاكمة، أي أن تصوير الأمر كأنه ميلًا من غازان إلى التشيع نعتبره تفسيرًا مذهبيًا سطحيًا.

وفي عهد الإيلخان أولجايتونَعِم الشيعة بتسامح أولجايتو[٧٨]، لكن يبدوأن التحول الإيلخاني باتجاه التشيع الإمامي، ترك أهل السنة في إيران بدون سلطة حامية وراعية [٧٩]، خصوصًا أن معظم السكان في إيران رفضوا المذهب الشيعي، مما أدى بأولجايتو إلى إصدار أمره بإعادة ذكر أسماء الخلفاء الراشدين في الخطة والسكة، فرجع بذلك إلى مذهب أهل السنة، خاصةً بعد أن أظهر له علماء السنة أن مذهب الشيعة مقارب لمذهب الخوارج، وهو يخالف إجماع المسلمين، بالإضافة إلى أن السلطان خشي ظهور الفتن والاضطرابات في نواحي كثيرة من دولته.[٨٠]

نستخلص من النص السابق، أن الأمر يبدو كأنه استجابة من الإيلخان أولجايتو إلى شعب إيران، برفض التشيع والرجوع إلى السنة مرة أخرى، ولوكان الأمر كذلك لكان من الأولى أخذ رأي الشعب الإيراني من البداية، هل يتشيع الإيلخان أم لا؟، لكن الأمر في وجهة نظرنا لم يكن كذلك، فالأمر سياسي في المقام الأول، ربما كانت الأسباب – السابقة الذكر – كلها، والتي أوصلت المغول إلى مأزق قد دفعهم نحو التشيع، هي نفسها التي جعلتهم بعد التجربة القصيرة مع التشيع الإمامي، يعمدون للرجوع عن ذلك إلى المذهب السني من جديد في عهد الإيلخان أبي سعيد بهادر خان (٧١٦-٧٣٦هـ/ ١٣١٧-١٣٣٥م). حقًا لقد كان مأزق الإيلخانيين أنهم لم يبلغوا درجة من القوة، تمكنهم من الاستيلاء على الخلافة بالسيف، كما أنهم لم يتمكنوا من الحصول على إجماع الأكثرية السنية.

خَاتِمَةٌ

لقد حاولت في صفحات تلك الدراسة، الكشف عن الأسباب الحقيقية وراء اتخاذ كل من المماليك والمغول الإسلام كأيديولوجية سياسية تدعم حكم كلاً منهما، وظهور فقيهين يمثلان هاتين الأيديولوجيتين السنية والشيعية، معولاً في ذلك على المنهج المادي الجدلي التاريخي، وقد نستطيع القول بالتوصل إلى استخلاص نتائج هامة وهي:

- إن اتخاذ الإسلام مطية للسلطة، والمكاسب السياسية والاقتصادية والعسكرية، ظهر واضحًا في كلا النموذجين المملوكي والمغولي، بحيث أصبح الدين تجارة رابحة في هذا العصر، مما يعكس الطابع البراجماتي للحكام آنذاك.
- نموذج ابن تيمية كفقيه سني، ساهم في تكريس فكرة فقهاء السلطان، وفرض تبريرية ظلم الحاكم، بقوله ستون سنة في ظل حاكم جائر أفضل من سنة بلا حاكم، فضلاً عن إباحته قتل معارضيه في الفكر والرأي، آخذًا بظاهر النصوص، معتمدًا النقل على حساب العقل، مما أنتج فكرًا متشددًا متطرفًا، تسبب في قتل وإزهاق الأرواح، لا لشيء إلا لإثبات أن فكره فقط هو الأصح، وأنه اتبع بذلك الكتاب والسنة، فهذا كل ما روج له الفقيه ابن تيمية الذي أطلق عليه عامة حوارييه لقب" شيخ الإسلام".

- استخدام السلطة المملوكية المتمثلة في السلطان الناصر قلاوون لابن تيمية كبوق للدعاية، في حرب المماليك ضد المغول، حيث استخدم دعاية التكفير ضد حكام المغول، الذين أعلنوا إسلامهم، مدعمًا بالطبع دعايته هذه بالأدلة والنصوص الدينية، وذلك لإرضاء سادته من المماليك، وبالتالي تحول الإسلام عند السلطة المملوكية إلى غطاء أيديولوجي لمواجهة العدو الكافر- بالنسبة للمماليك – والخطر المحدق بمصر والشام.
- اتباع المغول نفس المبدأ البراجماتي بغطاء ايديولوجي شيعي، متمثل في ابن المطهر الحلي الفقيه الشيعي الإمامي، الذي استطاع إقناع الإيلخان أولجايتو بالتشيع؛ لأسباب كما أوضحنا سياسية قحة، متعلقة بإشكالية الشرعية لدى المغول الذين يريدون حكم بلاد المشرق الإسلامي قاطبة، وما بين التسنن والتشيع حاول المغول إيجاد صيغة تتلاءم مع أنهم مسلمين جدد، وفي نفس الوقت تضمن لهم مناطحة المماليك في حكم أقاليم المشرق الإسلامي؛ لذلك لم يكف المغول عن قتال المماليك، إلا عندما أيقنوا قوة المماليك العسكرية، وفشل المشروع المغولي بالرغم من اختلاف الغطاء الأيديولوجي السني أو الشيعي، ووضح ذلك جليًا عندما فضّل آخر ايلخاناتهم أبوسعيد بهادرخان، الصلح مع المماليك، وعدم حربهم مرة أخرى، ويعتبر المغول أيضًا مستغلين للإسلام، لكن باختلاف أيديولوجية أخرى، بفقيه ليس متطرفًا ولا متشددًا، بل فقيه شيعي مستنير وفيلسوف معتمدًا العقل على حساب النقل.

الهَوامِشُ

(*) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام تقي الدين بن تيمية الحراني، ولد عام (٦٦١هـ/١٢٦٢م) قدم مع والده وأهله إلى دمشق وهو صغير، كانوا قد خرجوا من بلاد حران مهاجرين بسبب غزو المغول، وحفظ القرآن وأقبل على دراسة الفقه، وأقبل على تفسير القرآن، ودرس المذهب الحنبلي، إلا أنه لم يقتصر على مذهب ابن حنبل، وحسب بل تعداه إلى غيره من المذاهب الفقهية وعلم الكلام وأصول المعتقدات، وتعرف أيضًا إلى ديانات أخرى، مثل اليهودية والمسيحية لكي يكون قادرًا على مجادلتهم، وتوفي ابن تيمية في دمشق عام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م. (انظر: الكتبي، **فوات الوفيات**، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١م، ج١، ص٦٢؛ ابن كثير: **البداية والنهاية**، ط٢. دار الكتب العلمية ، بيروت١٩٩٧م، ج١٣، ص٢٠١ ؛ **دائرة المعارف الإسلامية الكبرى**، ط١، طهران ١٣٧٤ش، مجلد ٢، ص٥٣٦).

(١) محمد أبو زهرة، **ابن تيمية (حياته وعصره، آراؤه وفقهه)**، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٢، ص٢٤-٢٥.

(٢) ابن كثير، المصدر السابق، ج١٣، ص٢٠٥.

(٣) محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص٢٦.

(٤) نفسه، نفس المرجع، ص١٨.

(٥) نفسه، ص١٤٣.

(٦) **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي**، ط١ ، سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٢م، ج٣، (طور الانهيار)، ص١٢٨؛ **تاريخ الحضارة الإسلامية**، القاهرة ٢٠٠٠، ص١٣٦.

(*) الناصر محمد قلاوون، هو أبو الفتح محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون ولد عام ٦٨٤هـ، خلف أبوه المنصور في السلطنة عام (٦٩٣هـ/١٢٩٣م)، خاض معارك ضد المغول وانتصر عليهم، ومات عام ٧٤١هـ ودفن بالمدرسة المنصورية، تولى الخلافة ثلاث مرات (انظر: الكتبي، **فوات الوفيات**، ج٢، ص٥٢١).

(٧) المرجع السابق، ص١٥٣.

(٨) نفسه، ص١٥٦.

(٩) نفسه، ص١٥٥.

(١٠) نفسه، ص١٥٧.

(١١) **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، ط١، دار الفاروق للاستثمارات الثقافية، الجيزة ٢٠٠٨، ص١٨١.

(١٢) أخرجه البيهقي **(السنن الكبرى ١٦٢/٥)** حديث ١٦٤٢٧؛ السخاوي: **المقاصد الحسنة**، ص١٨١، من طريقين وقال: "وهما ضعيفان".

(١٣) المصدر السابق، ص١٨٢.

(١٤) نفسه، ص١٨٧.

(١٥) فؤاد عبد المنعم أحمد، **شيخ الإسلام ابن تيمية والولاية السياسية الكبرى في الإسلام**، ط١، دار الوطن، الرياض ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص١٣١.

(*) ما رأي ابن تيمية في مساندة الإمام الورع الفقيه أبي حنيفة النعمان- وهو من أئمة المذهب السني- لثورة الإمام الشيعي "زيد بن علي" على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك١٢٢هـ/٧٣٩م، وقولته الشهيرة: "إن خروج زيد يضاهي خروج رسول الله يوم بدر" (انظر: محمد أبو زهرة، **تاريخ المذاهب الإسلامية**، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠١٣م ص٥٠٠)، أليست هذه هي روح الإسلام العظيمة التي أنقذت الإنسان من نير العبودية، لقد حرّض الإسلام على الثورة ضد أي ظلم سواء من الحاكم

أو من غيره، فالإسلام تاريخيًا يمثل ثورة في ذاته على الشرك والظلم والعادات الجاهلية القبيحة والتمييز العنصري والطبقي، فضلاً عن أن الرسول الكريم وقف ضد رموز الشرك والكفر بمكة في بداية دعوته؛ لتحرير الإنسان من العبودية للبشر، فيخرج علينا ابن تيمية بآرائه المتشددة المُكرِسة للحكم الفاسد، والتي تعد في مضمونها بعيدة عن روح الإسلام و ضوابطه الأخلاقية، فطالما الحاكم يصلي ويقيم الشعائر، لكنه يظلم ويفسد ويقمع، فلندعوا له بالهداية ولا نخرج عليه أو نثور في وجهه؛ حفاظًا على الأمة من الفتنة والوقوع في الفوضى، في أي دين هذا؟! يقبل بالظلم، بالطبع هذه تبريرات لمشروعية وجود الحكام الفاسدين المستبدين، حتى لو افترضنا – وهذا من وجهة نظر بعض الباحثين والمفكرين - ان الباعث على فتاوي ابن تيمية هو الظروف التاريخية في عصره من حروب كثيرة بين المماليك والمغول، الأمر الذي يتسبب في عدم استقرار الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العالم الاسلامي، فذلك الباعث على آراء ابن تيمية في طاعة الحاكم الظالم ليس رهين عصره الذي عاش فيه أو ظروفه التاريخية المرتبطة به، بل إن آراء ابن تيمية في الولاية السياسية هي آراء عامة، ليست مرتبطة بأية فترات زمنية تاريخية مختلفة، افتى بها عن قناعة شخصية بعد تفسير سطحي للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، بل على العكس فالتاريخ بأحداثه يوضح لنا بجلاء، كيف أن الشعوب التي قامت بثورات شعبية ضخمة على حكامها الظالمين، نجحوا في اقامة دول متحضرة متقدمة، قائمة على أسس الحرية والعدالة الاجتماعية والتعددية الفكرية و الكرامة الانسانية، فضلاً عن ان بعض الثورات الشعبية اتخذت منحى الدموية والتسليح، لكنها حققت أهدافها، ويبرز نماذج في التاريخ الاسلامي كثورات الشيعة بمختلف فرقهم، كالزيديين الذين أقاموا دولة قوية في طبرستان واقليم الجبال سنة (٢٥٠هـ/٨٦٥م) حين ثاروا في وجه الخلافة العباسية، وأيضًا القرامطة المنبثقة عن الشيعة الاسماعيلية، الذين أقاموا دولة تعتبر أول دولة اشتراكية في تاريخ الإسلام في مناطق الشام والأحساء والبحرين وعمان، كانت دولتهم قائمة على العدالة الاجتماعية والمساواة في كل شيء لا يتسع المجال لتفصيلها، ودولة الأدارسة في المغرب الأوسط التي قامت سنة (١٧٢هـ/٧٨٨م)، كذلك الخوارج الذين أقاموا كيانات سياسية كبرى في بلاد المغرب كإمارة بورغواطة الخارجية الصفرية في مدينة تامسنا سنة (١٢٧هـ/٧٤٤م)، ودولة بني مدرار في سجلماسة التي تأسست سنة (١٤٠هـ/٧٥٧م)، فضلاً عن الدولة الرستمية الإباضية سنة (١٦٠هـ/٧٧٦م)، وهناك المزيد من الدعوات التي تحولت إلى ثورات ثم إلى دول، بفضل نهوض شرائح الطبقة الوسطى للقيام بدورها الهام، وقيادة بعض ثورات الفلاحين والحرفيين والمهمشين؛ للقيام بثورات كبرى ضد الخلافة العباسية، ليس هناك أي تبرير لطاعة حاكم مستبد وفاسد إلا من فقهاء السلطان المنافقين، فالدين الاسلامي في جوهره ثورة حقيقية من أجل كرامة الانسان.

(*) يبدو أن فقهاء السلاطين لابد أن يكونوا في جانب السلطة الحاكمة في كل زمان ومكان؛ لتبرير سلوك الحكام المستبدين واصباغ افعالهم وقراراتهم بصبغة تتفق مع الدين، وتضليل الشعوب بأن ذلك الحاكم هو قدر من الله، وانه يستلزم طاعة ولي الأمر ؛ لذلك صدق المفكر السياسي الإيطالي الكبير "ميكيافيللي" عندما كان ينصح أحد أمراء أسرة آل مديتشي في فلورنسا، في كتابه الأمير قائلاً:" إن وجود الدين ضرورة لا لخدمة الفضيلة، بل لتمكين الحكومة من السيطرة على الناس"، وأيضًا اذا تم استخدام الدين لتغييب إرادة الشعوب وتقييد حرية الرأي والقمع الفكري، الذي يستخدمه فقهاء السلطة الباطشة؛ فإن الدين يصبح له وظيفة تخدير الشعوب؛ لذلك اعتقد أن المفكر كارل ماركس لم يخطئ حين قال: "أن الدين أفيون الشعوب".

(١٦) **نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع**، ترجمة: محمد عبد العظيم، دار الأنصار، القاهرة، د.ت

(*) يبرر ابن تيمية حكم الغلبة والقوة؛ لأن المماليك قفزوا على الحكم بالشوكة والغلبة بعد الأيوبيين عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م بمقتل توارن شاه بن الصالح نجم الدين أيوب وفي هذا التاريخ بدأ حكم المماليك لمصر والشام. (انظر: المقريزي، **كتاب السلوك لمعرفة الدول والملوك**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٩م، ص٣٦١ ؛ سعيد عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، ط١، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٠م، ص١٨٢)

(*) وقد بدأها الخليفة "عثمان بن عفان ٢٣-٣٤هـ" عندما ثار ضده أهل مصر وأهل المدينة فقال: "إنما الخلافة هي سربالًا سربلنيه الله إياه" (انظر: السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د.ت، ص١٥٨)

(١٧) هنري لاووست، المرجع السابق، ص٢٠٥

(*) نحيل القارئ لمزيد من المعلومات والتعرف على تفاصيل ما حدث في بيعة السقيفة عام ١١هـ وما بعدها من احداث سياسية واجتماعية، تسببت في تحويل المسألة من اختيار خليفة للمسلمين إلى صراع على الحكم بين كبار الصحابة مبنيًا على أسس ودوافع اجتماعية قحة (انظر: طه حسين، **الفتنة الكبرى**، ٤ أجزاء ؛ محمود اسماعيل: **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي**، ج١ طور التكوين).

(*) غازان خان: هوغازان بن أرغون بن آباقا بن هولاكو، ثاني من أسلم من الإيلخانيين الذين حكموا ايران والعراق، تولى الإيلخانية بعد مقتل ابن عمه بايدو(٦٩٤هـ/١٣٠٥م)، وقد قام بإصلاحات تشريعية هامة عبرت عن مدي اهتمامه بأمور الحكم، وتطوير سيطرته على الأقاليم وسياسته التوسعية في إطار إسلامه، ومات سنة (٧٠٦هـ/١٣١٧م). (انظر: رشيد الدين، **جامع التواريخ (تاريخ غازاني)**، ترجمة: فؤاد الصياد، ط١ الدار الثقافية للنشر، القاهرة ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص٢٤٢؛ أبوالفدا: **المختصر في أخبار البشر**، ط١، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٨م، ص٤٣؛ ابن الفرات: **تاريخ ابن الفرات**، تحقيق: قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكية، بيروت ١٩٤٢م، ج٧، ص١٩١، (حوادث ٦٩٤هـ/١٢٩٤م)

(١٨) ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥١هـ، ج٥، ص٤٥٥

(١٩) **العرب وإيران (دراسة في التاريخ والأدب من منظور ايديولوجي)**، ط١، دار المنتخبة العربي، بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص١٩٩-٢٠٠

(٢٠) المقريزي، **السلوك**، القاهرة ١٩٣٩م، ج١، ص١٠٢٧- ١٠٣٩

(٢١) **الفتاوى الكبرى**، القاهرة ١٩٦٥م، ج٤، ص٣٣٢، ٣٥٨

(٢٢) **جامع التواريخ (تاريخ غازاني)**، ص٢٥٢

(٢٣) **ابن تيمية (حياته وعصره)**، ص٢٧

(٢٤) نفس المرجع، ص٢١١

(٢٥) نفسه، ص٢١٣

(٢٦) الآية رقم : ٢٠ من **سورة العنكبوت**

(*) في هذا الصدد بتعظيم العقل في الإنسان يتحدث الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ/٨٥٤م) عن قيمة وأهمية العقل قائلاً: "أنه أشد احتياجًا من السيف، وأسرع إلى التجديد والتغيير، واستخدامه كقيمة في التفكير، مثل الدواء الذي يقتل المرض أو السم، لا يقوى معارضوه على مقارعته؛ لضعف حجتهم، فمن أدركه أدرك كثيرًا من احتياجاته". (انظر: الجاحظ، **رسائل التربيع والتدوير**، تحقيق: عبد السلام هارون، ط١، مكتبة الخانجي، مصر١٩٧٩م، ص١٠٤)

(٢٧) **ابن تيمية (حياته وعصره)**، ص٢٣٣

(٢٨) محمد أبو زهرة، **تاريخ المذاهب الإسلامية**، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠١٣م، ص٥٩٢

(٢٩) دورية: مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق)، مقالة بعنوان: **العقل والنقل عند ابن تيمية** عدد ١ يناير ١٩٥٨م / ٩ جمادي الآخر ١٣٧٧هـ/ مجلد ٣٣، ص٥٦

(٣٠) محمد بهجت البيطار، **العقل والنقل عند ابن تيمية**، ص٥٦

(*) آية رقم (١٠) من **سورة الملك**

(٣١) **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٢٠٦

(٣٢) **شذرات الذهب**، ج٦، ص٩

(٣٣) محمد أبوزهرة، **تاريخ المذاهب الإسلامية**، ص٥٦٩

(٣٤) نفسه، نفس المرجع، ص٥٩٤

(٣٥) الآية رقم (١٢٥) من **سورة النحل**، وهي سورة مكية، أي وقت أن كان الرسول بمكة يدعو إلى دين الله في بداية دعوته إلى الإسلام، فنزلت الآية شديدة الإحكام بأن تكون دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ لأن النبي وأصحابه كانوا في مرحلة الضعف، وقريش هي الأقوى، مما يشير إلى فرضية دراسة ظروف وأسباب نزول النصوص القرآنية تاريخيًا، وهذا ما يرفضه ابن تيمية.

(*) علم الأصول: يقصد به القرآن الكريم والعقيدة الاسلامية بصفة عامة ولا يقصد هنا أصول الفقه.

(٣٦) ابن تيمية، **الفتاوى الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٧٨م، المجلد الأول (الطهارة)، ١٥-١٦

(٣٧) **الفتاوي الكبرى**، مج١، ص١٦

(٣٨) محمد أبو زهرة، **ابن تيمية (حياته وعصره)**، ص٢٤٣، ٢٤٨

(٣٩) **فوات الوفيات**، ج١، ص٦٥

(*) الأمر الذي يعكس إلى أي مدى وصل المستوى الفكري في القرنين السادس والسابع الهجريين من انحدار وتطرف، فكر لا يعرف الآخر، ولا يناظره، بل يفتي بقتله وتكفيره، ولا شك أن هذا الفكر مرتبط بالنظام السياسي الحاكم آنذاك وهو الدولة المملوكية، بأبنيتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أفضت إلى وجود وتكريس هذا الفكر وغلبته.

(٤٠) محمد أبو زهرة، **ابن تيمية (حياته وعصره)**، ص٤٤.

(٤١) نفس المرجع، ص٢١٢

(*) وحدة الوجود: قال بها المتصوف العظيم محي الدين بن عربي (٥٦٠-٦٣٨هـ) أما الاتحاد قال بها المتصوف الشهيد "أبو منصور الحلاج ت: ٣٠٩هـ (لمزيد من المعلومات عن وحدة الوجود انظر: الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي، أبو العلا عفيفي: **الفلسفة الصوفية عند محي الدين بن عربي**، ولمزيد من المعلومات عن فكرة الاتحاد (انظر: الحلاج، الطواسين).

(٤٢) نفسه، ص٤٥

(*) لقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل؛ لأن اليهود يتحصنون خلفها، ولعل من مصلحة الحصار قطع بعض النخيل لتمام الرؤية، أو لإحكام الحصار، أو لإذلال وإرهاب العدوفي حصاره وإشعاره بعجزه عن حماية أمواله، وممتلكاته، وقد يكون فيه إثارة له ؛ ليندفع في حمية للدفاع عن ممتلكاته وأمواله، فينكشف عن حصونه ويسهل القضاء عليه، إلى غير ذلك من الأغراض الحربية، أما فيما يتعلق بالدوافع الاقتصادية، فقد بقيت النخيل والمزارع لرسول الله (صلى الله عليه وآله) خاصّة، فقسّمها بين المهاجرين الأوّلين دون الأنصار، ولمّا قسّم الأراضي على المهاجرين أمرهم بردّ أراضي الأنصار التي أعطوها لهم، فقد أراد الرسول الكريم ألا يستفيد اليهود بالأرض الزراعية؛ لما كان لليهود من نشاط تجاري وزراعي آنذاك، لكن ليس قطع الأشجار والنخيل لمجرد الانتقام والغل والتشفي من اليهود، فنزلت الآية الكريمة من سورة الحشر: "مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَو تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ". (انظر: ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، ج٢، ص٥٤؛ الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، ج٢، ص٥٥٣؛ الزمخشري: **الكشاف في تفسير القرآن الكريم**، ج٤، ص٥٠٥).

(٤٣) **دائرة المعارف الإسلامية**، مج٢، ص٥٣٦.

(*) تكودار: هو أحمد تكودار بن هولاكوخان بن تولوي بن جنكيزخان، أول من أسلم من المغول في الدولة الإيلخانية، وتولى الحكم في إيران عام ٦٨٣هـ/١٢٨٢م بعد وفاة أخيه الأكبر آباقاخان، وقد قُتل بسبب إسلامه من ابن أخيه أرغون خان بن آباقاخان عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م، (انظر: البناكتي، **روضة الألباب**، ترجمة: محمود عبد الكريم، ط١، المجلس القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٧م، ص٤٦٩-٤٧٠)

(٤٤) ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات**، تحقق: قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكانية، بيرت، ١٩٤٢، ج٨، ص٣

(٤٥) **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب العلمية، بيروت د.ت، ج١، ص٢٥٧

(*)هوالمنصور سيف الدين بن قلاوون، كان أحد مماليك الصالح نجم الدين أيوب، وقد اشتراه الأمير علاء آقسنقر العادلي مولى الصالح نجم الدين أيوب، وتلقب بالعلائي الصالحي الألفي تولى الحكم (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م). (انظر: **ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي للتأليف والنشر، د.ت، ج٨، ص١١٥).

(*) قوبيلاي خان: هوقوبيلاي بن تولوي بن جنكيزخان الشقيق الأكبر لهولاكوخان، تولى عرش الخانية في الصين عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، وقد أُرسل هو وأخيه هولاكو بحملتين عسكريتين؛ لغزوايران والعراق عام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م بأمر من أخيهما منكوقاآن، وتوفي عام ٦٦٣هـ/١٢٦٤م (انظر: البناكتي، **روضة الألباب**، ص٤٣٨،٤٤٠).

(٤٦) دوروتيا كرافولسكي، المرجع السابق، ص١٩٥، ١٩٦

(٤٧) المرجع السابق، ص١٩٦

(٤٨) دوروتيا كرافولسكي، نفس المرجع، ص١٩٧

(*) مصطلح المغول في إيران يقصد به الإيلخانيون ؛ لأنه عندما فتح هولاكوخان إيران والعراق أسس دولة كبيرة عرفت بالإيلخانية، وكلمة إيلخان: تركية مركبة من لفظين هما ايل وخان، "ايل" بمعني تابع و"خان" بمعني حاكم ورئيس عشيرة، وبذلك يكون المغني "إيلخان" هو نائب الحاكم أي نائبة في حكم الولايات التابعة للدولة وهو يتبع الخان الأعظم الذي يحكم الإمبراطورية المغولية، وقد أطلق هذا اللقب على بيت أو خلفاء هولاكو بدءً من آباقا بن هولاكو، عندما أسند إليهم

حكم إيران: "إيلخانيين"، بعد استقلالهم عن الخان الأعظم في قراقورم العاصمة المغولية.(انظر: عبد السلام عبد العزيز فهمي، **تاريخ الدولة المغولية في إيران**، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨١م، ص٤).

(٤٩) كرافولسكي، نفسه، ص١٩٧.

(٥٠) نفسه، نفسه، ص٢٠٥

(٥١) سعيد عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، ص٢٠٥

(٥٢) كرافولسكي، نفسه، ص٢٠٥

(٥٣) **الدين والفكر في فخ الاستبداد**، ترجمة: ثريا محمد على طه، مكتبة الشروق، القاهرة ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص٤٩

(٥٤) **صبح الأعشى**، ج٨، ص٦٣

(٥٥) **الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين**، ط١، الدوحة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٢٥٠

(٥٦) كرافولسكي، نفس المرجع، ص١٨٩

(٥٧) **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، تحقيق: زبيدة عطا، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، د.ت، ص٣٦٢

(٥٨) **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط٧، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧م، ص٣٩٣

(*)هو أولجايتوخدابنده بن غازان أسلم، وسُمي محمد تولي الحكم عام ٧٠٣- ٧١٦هـ، وحدث أن تحول من المذهب السني إلى المذهب الشيعي، بمساعدة الفقيه الشيعي جمال الدين ابن المطهر الحلي عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م، وقد أحدث اضطرابًا كبيرًا، ولكنه عاد مرة أخرى إلى المذهب السني قبل موته عام ٧١٦هـ (انظر: البناكتي، **روضة الألباب**، ص٤٩٨ وما بعدها)

(*) هو أبوسعيد بهادر بن أولجايتو، كان حاكمًا على خراسان، قبل أن يتولى الحكم بعد وفاة أبيه أولجايتوعام ٧١٦هـ/ ١٣١٦م، كان مسلمًا على المذهب السني، وتوفي عام ٧٣٦هـ/١٣٣٥م، وكانت وفاته هي نهاية حكم الدولة الإيلخانية في إيران والعراق، قبل أن تتفكك وتتحول إلى صراعات على العرش المغولي (انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ط٢. دار النشر فيسبادن، ألمانيا ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ج١، ص٣٢٢)

(٥٩) المصدر السابق، ج٧، ص٢٤٩

(*) اليرليغ أوالبرالغ، وهي لفظه تركية، معناها المرسوم وعليها جري عُرف كتَّاب بلاد الشرق، وقلما بأن تكتب بالديار المصرية. (انظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٧، ص٢٤٩)

(٦٠) كرافولسكي، المرجع السابق، ص٢٠٤-٢٠٥

(٦١) نفسه، نفس المرجع، ص٢٠٥

(٦٢) نفسه، ص٢٠٥

(٦٣) نفسه، ص٢٠٦-٢٠٧

(٦٤) **السلطان أولجايتوبين التسنن والتشيع**، ص٤٣

(٦٥) فاطمة نبهان، المرجع السابق، ص٣١

(٦٦) ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار**، تحقيق: على المنتصر الكتاني، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١، ص٢٢٤؛ القزويني: **لب التواريخ**، مطبعة يمني، تهران ١٣١٤هـ. ش، ص١٤٦؛ شرف خان البدليسي، **شرفنامه**، ترجمة: محمد على عوني، دار الزمان، بيروت، د.ت، ج٢، ٢٧

(٦٧) فاطمة نبهان، نفس المرجع، ص٢٥

(*) هو رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة الهمذاني، كان جده موفق الدولة يعيش مع الخواجه نصير الدين الطوسي في قلاع الإسماعيلية، ثم التحق بخدمة هولاكوخان، وُلد عام رشيد الدين عام في همذان ٦٤٥هـ/١٢٤٧م، مضى فترة شبابه في تحصيل العلوم المختلفة وخاصة الطب، وقد عمل في بلاط آباقاخان طبيبًا، إلى أن عين وزيرًا في عهد السلطان غازان خان، واستمر يتقلد أعباء هذا المنصب في عهد السلطان أولجايتو، وابنه أبوسعيد بهادر خان، وقُتل بأمر أبي سعيد عام ٧١٨هـ/١٣١٨م. (انظر: فؤاد الصياد، **مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني**، ط١، القاهرة ١٩٦٧م، ص٢٣٣).

(٦٨) كرافولسكي، المرجع السابق، ص٢٤١.

(٦٩) **الفتاوي الكبرى**، ج٤، ص٣٥٢.

(٧٠) كرافولسكي، نفسه، ص٢١٠.

(٧١) ابن المطهر الحلي، **رجال العلامة الحلي (مقدمة: محمد صادق بحر العلوم)**، ص٧.

(٧٢) ابن المطهر الحلي، المصدر السابق، ص٨.

(٧٣) **نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية**، ص١٧١.

(*) هو محمد بن محمد بن الحسن نصير الدين الطوسي، الفيلسوف صاحب علم الرياضة، وُلد بطوس عام ٥٩٢هـ، وكان رأسًا في علم الأوائل، لاسيما في الرصد، تتلمذ على يد المعين سالم بن بدران المعتزلي، كان ذومنزلة عالية عند هولاكو، أقام مرصد مراغة بأمر من هولاكوخان، واتخذ به خزانه فسيحة ملأها من الكتب التي نُهبت من بغداد والشام والجزيرة على ما يزيد على أربعمائة ألف مجلد، وعمل دار للحكمة ورتب فيها فلاسفة ومعلمين، لكل واحد في اليوم والليلة ٣ دراهم، ودار للطب يعطي للطبيب درهمان، ومدرسة لكل فقيه في اليوم منهم، دار حديث لكل محدث نصف درهم في اليوم، كان الطوسي علامة عصره جامعًا لكل العلوم، توفي عام ٦٧٢هـ، وهوشيعي المذهب متأثرًا بالفكر المعتزلي (لمزيد من التفصيلات عنه انظر: ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج٥، ص٣٣٩-٣٤٠ ؛ الكتبي: **فوات الوفيات**، ج٢، ص٣٠٧؛ ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٨٠)

(*) خريتًا: المحقق

(٧٤) **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الهند ١٩٣٩م، ج٢، ص١٢-١٣

(٧٥) ابن المطهر الحلي، المصدر السابق، ص١٦

(*) الإمامية: هم الذين ساقوا الإمامة في ولد فاطمة وعلى بالنص عليهم واحدًا بعد واحد، ويشترطون معرفة الإمام وتعيينه، في الإيمان، فالإمامة عندهم من على بن أبي طالب الوصي إلى ابنه الحسن بالوصية، ثم إلى أخيه الحسين ثم إلى ابنه علي زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم جعفر الصادق، ومن هنا افترقوا إلى فرقتين: فرقة ساقوها إلى ولده إسماعيل وهم الإسماعيلية، وفرقة ساقوها إلى ابنه الأخر موسى الكاظم، وهم الإثنا عشرية؛ لوقوفهم عند الثاني عشر من الأئمة، وهو محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى بسرداب بسامراء، وهي الغيبة الكبرى عام ٢٦٥هـ/٨٧٨م ثم يعود؛ لينشر العدل أي أنه هوالمهدي المنتظر(انظر: الأشعري، **مقالات الإسلاميين**، ط٣، فيسبادن، ألمانيا١٩٨٠، ص٨٨؛ ابن خلدون: **المقدمة**، دار الفجر، القاهرة ٢٠٠٤م، ص٢٥٦؛ الشهرستاني: **الملل والنحل**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠١٤م، ص٢٧).

(٧٦) ادوارد جرانفيل براون، **تاريخ الأدب في إيران**، ترجمة: علاء الدين منصور، ط١، المجلس القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٥م، ج٣، ص٥٨

(٧٧) رشيد الدين، **تاريخ مبارك غازاني**، ص١٩٠- ١٩١، ٢٠٣- ٢٠٤

(٧٨) محمود اسماعيل، **سوسيولوجيا الفكر الاسلامي**،ج٣،ص١٨٩

(٧٩) كرافولسكي، المرجع السابق، ص٢٢٧

(٨٠) فاطمة نبهان، المرجع السابق، ص٣٥.